شعر الزهد بين الأصالة والحداثة في الأدب العربي النيجيري: كتاب مطية الزاد إلى المعاد للشيخ عبد الله بن فودي نموذجا

RENUNCIATION POETRY BETWEEN ORIGINALITY AND MODERNITY IN NIGERIAN ARABIC LITERATURE: THE BOOK "*MADIYYATUZZADI ILAL MI'ADI*" OF SHEIKH ABDULLAHI BN FODIYYO CASA STUDY

د. زكريا صالح عثمان
المحاضر بقسم اللغة العربية ، كلية التربية الفدرالية زاريا ، كدونا-نيجيريا
zakariyya09@yahoo.com +2348062263096
د. غزالي بلّو
المحاضر بقسم اللغة العربية ، كلية شيخ شاغاري للتربية صكتو ، نيجيريا

الملخص:

إن قضية شعر الزهد لمن القضايا ذات أهمية بارزة في الأدب العربي، حيث تناولنها الكتّاب والنقاد بكثير من التحليلات، ذاكرين فيها بداية نشأة هذا الفن من الشعر لدى العرب الخلص وتطوره وازدهاره، وذلك بكل أصالته وما طرأ فيه من الحداثة والابتكار الذي جاء بعد تلكم الأمة التي سلفت وفضلت بأصالتها. فالابتعاد عن الدنيا وزخرفها مع زينتها لمن دواعي الزهد في شخصية المسلم المؤمن التقي، وكذلك ذكر القبر وما بعده، واتخاذ العزلة تفكرا بالله وبمخلوقاته، واستغاثته وطلب مغفرته بما مضى من الزلل وارتكاب المعاصي لتلك النفس الأمارة بالسوء، فيتجمع ذلك كله في نفس الشاعر فيبرق خلالها بلطائف الكلمات الهادئة والعبارات الجاذبة، والتي أطرزها في المنظوم أو المنثور بأسلوب جميل، وألفاظ راقية، وأدب ساذج ملتزم بقيم إسلامية راقية، وكلمات جذابة سلسة، موافقا لموقفه ومسايرا على درب الشعراء، مائلا نحو آليات الأدب العربي ومكوناته الكلي. فهذه المقالة بعنوان: "**الزهد بين الأصالة والحداثة في أدب العربي النيجيري: كتاب مطية الزاد إلى المعاد للشيخ عبد الله بن فودي نموذجا**" تدرس وتحلل تلك القضية الساخنة في الأدب العربي، والتي أضمرها الشيخ العلامة السوداني عبد الله بن فودي–تغمده الله برحمته–في ثنايا الكتاب بتلكم الكلمات الزهدية، واللطائف الزجرية، والعبارات الرقراقة، وهو كنموذج من نماذج مختارة في الكتاب. فالمقالة تناولت بالدراسة الكتاب منهجا وأسلوبا وما احتواه من الموضوعات، مع تحليل النصوص المعروضة المستنقحة من أصالة شعراء هذا الفن وما جاء في الكتاب المذكور الذي ألف في الحداثة.

مقدمة:

إن هذه المقالة تتناول فن شعر الزهد وقيمته الفنية في الدراسات الأدبية أصالة وحداثة، حيث انكب الباحثان على أحد كتب الشيخ عبد الله بن فودي رحمه الله المسمى بـ"**مطية الزاد إلى المعاد**"، ليستشف فيه تلكم القضية لكثرة ما أورده من قصائد زهدية ولطائف وعظية من حكايات وقصص ملبية إلى حياة زهد مع الالتزام بالقيم الإسلامية، وتحتوي هذه المقالة على النقاط التالية:

- ✓ مفهوم الزهد لغة واصطلاحا.
- ✓ نشأة شعر الزهد وتطوره في الأدب العربي النيجيري.
- ✓ ترجمة موجزة عن العلامة السوداني الأستاذ عبد الله بن فودي.

- ✓ دراسة موجزة عن كتاب "**مطية الزاد إلى المعاد**" تعريفا ومنهجا وأسلوبا.
- ✓ دراسة أدبية تحليلية لظاهرة شعر الزهد في الكتاب.
- ✓ الخاتمة.
- ✓ الهوامش والمراجع.

مفهوم الزهد لغة واصطلاحا:

جاءت كلمة الزهد في المعاجم اللغوية متعددة الأطراف والتعبيرات حسب وضع كل لغوي معجمي للكلمة. فالفيروز آبادي يعرف بقوله: زهد فيه، كمنع وسمع وكرم، زهدا وزهادة أو الدين: ضد رغب، وكمنعه حزره[1].

وأما الجوهري فقد ذكر في معجمه الصحاح شرحه لهذه الكلمة قائلا: الزَهدُ: خلاف الرغبة تقول: زَهِدَ في الشيء وعن الشيء، يَزْهَدُ زَهَداً وزَهادَةً. وزَهد يَزْهَدُ لغة فيه. وفلان يَتَزَهَّد، أي يتعبَّد. والتزهيد في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه. والمُزْهِدُ: القليل المال[2].

ويقول صاحب لسان العرب في مادة (زهد): الزُّهد والزَّهادة في الدنيا ولا يقال الزُّهد إلاَّ في الدين خاصة والزُّهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا والزهادة في الأَشياء كلها ضد الرغبة زَهِدَ وزَهَدَ وهي أَعلى يَزْهَدُ[3].

فالزُّهدُ في الدين والزهادةُ في الأشياء كلها ورجل زهيد وامراة زهيدة وهما القليل طعمهما[4]. وأزهد الرجلُ إزهاداً فهو مُزهِدٌ لا يرغب في ماله لقلته. وعطاءٌ زهيدٌ: قليل وأزدهد العطاءَ: استله. والمزهِدُ القليل المال[5].

وأما الزهد اصطلاحا: فقد عرفه كثير من حكماء العرب، منها قال الشبلي: "الزهد قطع العلاقة وهجر الخلائق"[6] وقال بعض السلف: "الزهد خلع الراحة، وبذل الجهد، وقطع الأمل" وقال الأنطاكي أحمد بن عاصم: "الزهد هو الثقة بالله، والتبرء من الخلق، والإخلاص في العمل، واحتمال الذل" قيل للزهري ما الزهد في الدنيا؟ قال أمَا إنه ليس بشعث اللمة، ولا قشف الهيئة ولكنه ظلف النفس عن الشهوات"[7] وقيل للخليل بن أحمد من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: "من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود"[8]

هكذا، فاختتام تعريفنا لمفهوم الزهد مصطلحا يكون بأحلى كلام وأرقاه، وهو كلام ليس فيه نطق هوى، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يستخلص من خلال الخطاب الشريف صلواته وسلامه عليه نستنتج هذا المفهوم الصحيح الدقيق، فقد سئل: يا رسول الله من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: مَن لم ينس المقابر والبلى، وآثر ما تبقى على ما يفنى، وعدّ نفسه مع الموتى"[9].

فالملاحظة هنا هي أن الزهد في المعنيين المعجمي والمصطلحي يكاد يتفق في معنى واحد، حيث أنه مدعاة إلى التخلق بالأخلاق الإسلامية الحميدة السمحة، وملتزمة بالقيم والمبادئ الإنسانية التي تدعو إلى التذلل والخشوع والتواضع، مع الإضمار والوَساوس وتصفية الأعمال، وحمل أمور الدنيا على رؤوس الكف لا بداخله، احتقارا واستخفافا بأمرها دون ذكر الله ومناجاته، وقد كان للأدب العربي نصيب وافر في هذا الفن، وهو فن من فنون الشعر عند الشعراء خصوصا الإسلاميين منهم، بحيث نظم كثير منهم قصائد تلبي طلبات الزهد وما حوى، وكذلك الكتّاب بإبداعات فنية نثرية مرققة ومدققة على نمط جميل وفصيح مبين.

نشأة شعر الزهد وتطوره في الأدب العربي النيجيري:

ما مرّ في السابق عبارة عن تعريفات للزهد، حيث جلّ ما عرّف ينطوي تحت ظلال منظور إسلامي، وبعبارات متسمة ومرسومة بألفاظ إسلامية، وما يعبّر فيه من أشعار زهدية إنما هي ملبية بدعائم

الإسلام، وبقيمه التي استقت فكرته من القرآن الكريم الذي دعى إلى الأخلاق الفاضلة، والاتصاف بصفات راقية نبوية من التقوى والإخلاص والابتعاد عن الدنيا وما يشغل المرء عن ربه سبحانه وتعالى، وكذلك ذمها، والتقشع والتضرع والخضوع لله وحده، وتصوير القيامة ومشاهدها وذكر القبر وما حوى.

فالزهد هو الغرض الشعري الذي قال فيه القدماء بأنه القناعة وهو الغنى والتقوى، وهو تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء وهو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر[10].

والغرض قديم جاءت أصوله وجذوره في أدب ما قبل الإسلام فكان شعر التدين يظهر في صورة أبيات مفردة تأتي في ثنايا قصائد تعالج غرضا ما، غير أن شعر التدين في ذلك الحين كان عبارة عن حِكَم متفرقة أتت نتيجة التأمل والتجربة فجاءت صادقة تتعلق بالموت وما بعده، وفي أواخر العصر الجاهلي افتقرت الجزيرة العربية إلى الإصلاح الديني، وتهيأت لظهور الدين الجديد، حيث يلاحظ ذلك في بعض القصائد الجاهلية التي افتقرت معانيها من معاني الإسلام، بطبيعة تأثير الديانات السابقة[11].

وكان ممن اتخذوا هذا الدرب وسلكوا هذا المسلك في تلك الفترة عدي بن زيد المشهور بالوعظ والتذكير من الشعراء المتعبّدين المتنسكين قبل الإسلام، المتحنّفين والمتلمّسين لدين سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومنهم المأمور الحارثي، وأُكْثُم بن صيفي، وورقة بن نوفل، وأبو القيس الراهب، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة الأيادي، فهؤلاء النخبة تمسكوا بالأخلاق والقيم والمبادئ الإنسانية الراقية، وذلك بسبب ما يكتنف الحياة من تعقيد لا يستطيع هؤلاء مواجهته فيلجأون إليه في محاولة للهرب والتخلص من المتاعب التي تنتظر من ينغمر بمثل الحياة الصعبة مغطّيا بذلك على هربه، أو معلنا عن سخطه، فيبرقون بقصائد أو يخطبون بمنثورات ذاهية تلك المبادئ والمعاني الزهدية.

وهكذا صار الأمر حتى ولوع بداية صدر الإسلام، وشعل نور الحق، وطلوع ذاك النبي الذي مدحه الله سبحانه وتعالى في حقه قائلا: "**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**" [12] فهي لبنة أساسية تلبي تشخيص تلكم الأخلاق في كل المجالات الإنسانية في الحياة، وقامت الصحابة بمناصرة نبيهم بأجسامهم وأموالهم وبألسنتهم، فيرى بسمات وآثار هذا الفن الشعري–الزهد–في قصائد بعض من وقفوا بمناصرات شعرية ضد من يهجون الرسول صلى الله عليه وسلم، فعدّ من الشعراء المنتصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأشعارهم، ومن مدحوه أمام معاديه قبيلة وجماعة، حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تظهر هذه الظاهرة في قصائده كإرهاصات وتطورات لهذا الفن الشعري–الزهد–لما فيه من معاني إسلامية راقية، واتخاذ الزاد للميعاد، والخوف من الله سبحانه وتعالى، والاستعداد ليوم تشخص فيه القلوب والأوصال، فمثلا حينما مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله:

إِنَّ الـــذَّوَائِبَ مِـــنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ * قَدْ بَيّنُوا سُنَنًا لِلناس تُتَّبَعُـــــوا
يَرْضَى بِهَا كُلُ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُــه * تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذي شَرَعُوا[13]

فالإسلام علم الإنسانية خيري الدنيا والآخرة، وعلم المسلم القيم والمبادئ، وحفظ الحرمات والكرامات مع ذلك لم يقدر على درع الفتن التي نشأت بعد الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه من واقعة الجمل والصفين، فشبت الفتن وتتابعت إلى أن أثرت في الأخلاق السياسية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ثم ما جرى بين الحسين ويزيد رضي الله عنهم أجمعين، فوقع في نفس بعض الصحابة في تلك الفترة الخوف حتى قاموا ينكرون هذه الحوادث؛ الأمر الذي أدى إلى أن لزموا بيوتهم ومساكنهم، فتوجهوا للعبادة وتركوا أمور الناس والخوض في الاختلافات والشبهات حتى يحكم الله بينهم. فخلال هذه الاضطرابات السياسية العامة، والصراع المذهبي والفساد الأخلاقي، هرب الزهاد بأنفسهم من

ريف الحياة ولجأوا إلى الورع مقبلين على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فنشط بينهم الدّاعون إلى الله يذكّرون الناس بتعاليم الإسلام، فيعظونهم ويحذرونهم محاولين تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء، قدر المستطاع[14].

وقد وصل شعر الزهد إلى قمته مع بعض شعراء التصوف الذين سعوا للاتصال بالله تعالى والتعرف إلى سرّ جلاله وأظهروا حبّهم له ووجدوا راحتهم في مناجاته.

هكذا، عاش هذا الفن الشعري لدى العرب على مرّ العصور الأدبية، وعندما حلت فترة النهضة الحديثة تواليت وتتابعت نفس الدرب من الصحوة الإسلامية والدعوة إلى الأخلاق مع عودة مجد هذه الأمة من أصول الشريعة والقيام بتربية إسلامية للأجيال الراهن والمتقدم. فتسرب الأمر إلى غرب إفريقيا والتي تحتضن فيها دولة نيجيريا.

فشعر الزهد في الأدب العربي النيجيري قد أكبّ عليه شعراء نيجيريا حيث أضمروا فيه أشعار الوعظ والإرشاد والحكم والأمثال مع التصوف فيها، وهي موضوعات ذات قيمة أدبية لدى علماء نيجيريا في فترة المجاهدين والتي تعتبر فترة إرهاصات ونشوء هذا الأدب العربي في هذه المنطقة، فقرضوها تحت ظلال الشعر التعليمي والمنظومات العلمية مع المحفوظات، فوجد من هؤلاء الأجلاء من كان يميل طبعه إلى الزهد والتصوف فيختص بهذا الفن في نظمه ويسلك طريق المتصوفين فيه. ومع أن التصوف في الشعر العربي فن مستقل بنفسه فإنه في نيجيريا في تلك الفترة لا يختلف كثيرا عما كان العلماء ينظمونه في الوعظ والإرشاد، فقد يقرض الشاعر الصوفي قصائد يحث الناس فيها على التزهد وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة ويحذرهم من الدنيا وغدرها ويوجه نظرهم إلى ما يراه من الفساد في الناس والزمان[15]. وكان من معانيها أيضا التوسل والأدعية والتوبة والشكوى من الدهر والزمان وإنكار الأخلاق السيئة وغير ذلك.

هذا، فالأمثلة كثيرة ومذكورة في بعض كتب الأدب التي ألفت في نيجيريا، ولا داعية لذكرها هنا إلا أنه يوضح لنا أنهم قد طرقوا أبوابا شتى في الشعر فأكثروا في شعر الجهاد وفي المدح، كما أكثروا في الوعظ والإرشاد، وفي الشعر التعليمي عامة، ولقد كانت الظروف السياسية والدينية والاجتماعية في تلك الحقبة تقتضي إنتاج ذلك النوع من الشعر[16].

ومن المعاني التي أطال الشعراء الوقوف عندها، ذم الدنيا، والحياة الفانية التي ذمها الباري في كتابه العظيم ووصفها بأنها دار الغرور وبأنها دار الفناء.

ترجمة موجزة عن العلامة السوداني الأستاذ عبد الله بن فودي:

هو عبد الله بن محمد فودي بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد بن جب بن محمد ثنب بن أيوب بن ماسران بن بوب باب بن موسى (جكل) الذي قدم من بلاد فوت تورو قائدا هجرة قبيلة تردب الفلاتية إلى بلاد هوسا في منتصف القرن الثامن الهجري، والخامس عشر الميلادي[17].

أما ولادته، فلم يرد في المصادر التي بين أيدينا تاريخ مؤكد لها، ولكن الشيخ عبد الله ذكر أن بينه وبين أخيه الشيخ عثمان ثنتي عشرة سنة. فإذا كان الشيخ عثمان قد ولد سنة 1168 هـ/ 1754م، فإن ولادة الشيخ عبد الله تكون في سنة 1180 هـ/ 1766 م[18].

وينتسب الشيخ عبد الله إلى قبيلة الفولاني التي تنسبها بعض المصادر إلى الأصل العربي، بينما ترجعها بعضها إلى الأصل الحامي. ومهما يكن الأمر فإن قبيلة الفولاني قد رفع شأنها ومكانتها ذلك الدور الذي قام به مجموعة من أبنائها ممن تولوا مهمة التعليم والدعوة إلى الله في بلاد الهوسا وغيرها، وبخاصة الشيخ عثمان بن محمد فودي وأخيه الشيخ عبد الله، ومحمد بل بن الشيخ عثمان، والذين تكللت جهودهم

الدعوية والجهادية بقيام أكبر دولة إسلامية في العصر الحديث في غرب إفريقيا جنوب الصحراء، وهي الدولة الصكتية 1219– 1321 هـ/ 1804 – 1903 م[19].

وقد كانت بدايته العلمية عند والده محمد فودي الذي كان فقيها كبيرًا فالمعنى الفلاني للقب فودي هو فقيه، وهذا يدلنا على نوع الأسرة التي تدرج منها عبد الله بن فودي[20].

وبعد أن حفظ القرآن عند والده أخذ أخوه الكبير الشيخ عثمان في تعليمه فدرس عليه الكثير من الكتب المنظومة مثل العشرينيات والوترية وغيرهما ما ساعد في صقل الموهبة الشعرية لديه، و"تلقى كذلك عن عدد كبير من مشاهير العلماء في عصره، قرأ على كل واحد منهم المادة والكتب التي تخصص فيها حتى تبحر في شتى الفنون"[21].

عُرف الشيخ عبدالله بين بني بلده وأهله بأنه كان عالما بالعربية ضالعا فيها، وكان شاعرا فحلا وعالم لغة ذائع الصيت، حتي إنه لقب بين قومه بـ"عربي السودان"، كان الشيخ عبدالله الساعد الأيمن لأخيه الشيخ عثمان في حركة الجهاد، حيث اشترك في حملات الوعظ والإرشاد التي سبقت الجهاد في بلاد هوسا ثم قاد أغلب حملات الجهاد ضد ملوك هوسا الذين حاربوا الشيخ عثمان ودعوته .اشتهر الشيخ عبدالله وهو أحد القادة الثلاثة: الشيخ عثمان، والشيخ عبدالله، والشيخ محمد بلّو بن الشيخ عثمان، بمقدراته الكبيرة في مجال اللغة العربية والعلوم الإسلامية، فقد بلغت مؤلفاته عند بعض مؤرخيه مائة وسبعين مؤلفا ما بين كتاب ورسالة، ويُعتبر كتابه في التفسير المسمي "ضياء التأويل في معاني التنزيل" ذو الأجزاء الأربعة من أجلّ مؤلفاته، كما يُعتبر ديوانه المسمي "تزيين الورقات ببعض مالي من الأبيات" من أهم الوثائق في حركة الجهاد لأنه سجل فيه شعرا أحداث الجهاد كاملة. وقد كتب الشيخ عبد الله في جميع أنواع العلوم الإسلامية والعربية مسهما بذلك إسهاما كبيرا في نشر العلوم والثقافة الإسلامية في منطقة بلاد هوسا بصفة خاصة، وغرب إفريقيا عامة.

وبعد حياة حافلة بالجهاد والإدارة والتعليم والتربية والتأليف توفي الشيخ عبد الله ليلة الأربعاء في محرم سنة 1245هـ/ 1829م عن عمر يناهز ستا وستين[22].

دراسة موجزة عن كتاب مطية الزاد تعريفا ومنهجا وأسلوبا:

إن كتاب "**مطية الزاد إلى المعاد**" لمن سلسلة مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي–رحمه الله–وهو كتاب للرقائق والتصوف والزهد والورع، حيث أسرد فيه كثيرا من القضايا الإنسانية الملتزمة بشعائر الإسلام المتعلقة بالمسلم المؤمن الذي يريد النجاح الصافي أمام الملك القهار من كل العيوب، يوم ترجف الراجفة والتي تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وهو كتاب طابق اسمه كمطية يركبها التقي الصالح حاملا عليها زاده لمعاده، لأنها تذكر بالآخرة وما حوت، وتواعظ الغافل الساهي بدررها اللامعة، ووصاياها الثمينة، مزينة بأحاديث واردة من عند من سمي بصاحب الزهادة، محمد صلى الله عليه وسلم.

فالكتاب من أدقّ الكتب في مؤلفات الفوديين وعظا وإرشادا، زجرا وتذكيرا، درسا وتعليما، تجربة وتطبيقا، أملا وعملا، قصصا وحكايات، صادرة صافية من مصادر الأمة الإسلامية، ومنبئها ومنتجها عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم أقوال الصحابة ووصاياهم رضوان الله عليهم، ثم من تبعهم بإحسان وصلاح وتقى إلى يوم تبلى السرائر.

هذا، فالكتاب جمع كثيرا من نظم الزهد ونثره، مهيئا فيه لطائف الكلمات والعبارات، وبأشعار جميلة تظهر خلالها النزعة الدينية المرشدة إلى ترك الدنيا وزخرفها، واعتزال اللهو مع اللعب وما هوى، وغمض

البصر عن الغزل وذكر الأغاني، وما حدثته أيام الصبى، وكل ما يشغل القلب والوعي المسلم الرباني عن العبادة والمعبود، وعن حضرة الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم.

كان الكتاب مليء بعبارات مسجوعة وعظية إرشادية، مناديا بصوت مرتفع زجر، وبكلمات رقراقة جذابة، مستعطفا مستسليا في بعض الوقفات، برهنة وحججا لمن طغى وتجبّر، وآثار الحياة الدنيا. وكذلك فيه ذكر أفعال الصالحين وكراماتهم، وفيه أعلام كثيرة من التابعين وتابعيهم وكذلك العلماء الذين عاشوا مع البغداديين والكوفيين أو البصريين، في القرني السادس والسابع الهجريين إلى ما بعدهما بقليل.

وأما أسلوب الكتاب: فهو أسلوب علمي متأدب، وذلك بين العقلية والفكرية، وبفلسفة المتصوفين الزهاد واستشهاده بالآيات القرآنية في بعض الوقفات، والأحاديث النبوية الشريفة، وقد استخدم الشيخ عبد الله بن فودي في هذا الكتاب أسلوب السجع والجناس في بعض الأمثلة والتعليقات التي يردها قبل سرد الأبيات الوعظية الإرشادية الداعية إلى الزهد، فهو أسلوب تعوّد به أصحاب التصوف والزهد من الدنيا عندما أرادوا قرض الأبيات حول ذلك أو إنشاء النثر الملتزم بأسلوب رفيع راق.

دراسة أدبية تحليلية لظاهرة شعر الزهد في الكتاب:

يقول الشيخ عبد الله بن فودي في كتابه "مطية الزاد إلى المعاد": إلهي إليك أشكو تخلفي من الرفاق، وهل طمع في اللحاق، بك علّقت أملي، وعلى جودك متكلي، قد دنا أجلي، وضعفت عن عملي، منك أطلب الوصول إليك. فكتب قصيدة تأسف يُذْرَفُ منها العيون، ويتقمص سامعها بتقمص تقوى واتخاذ درب الصالحين الأتقياء باستماعه لها، يقول في القصيدة:

تَمُرُّ اللَّيَالِـــي وَنَـفْسِي وَمَـــالِـــي ... فَيَـــا قَـــوْم مَالِي عَنِ الْمَوْتِ مَالِي
نَهَـــارِي جِـــدَالٌ وَلَيْلِي انْجِـــدَال ... وَحَـــوْلِي رِجَـــالٌ عَلَى مِثْلِي حَالِي
قَطَعْتُ لِعُمْرِي بِسَاعَـــاتِ عُـــمْرِي ... بِزَيْـــد وَعَمْرو وَقِيـــلَ وَقَـــــال
أَفِـــي الْمَـــوْتِ رَيْبٌ أَيجـملُ عَيْـــب ... لِمَـــنْ لاَحَ شَيْب لَـــهُ فِي القـــذال
شَـــبَابِـــي يَفِـــرّ وَشَيْـــبِي يَـكرّ ... وَمَـــا إِنْ تَمـــرّ مَنُـــونِي بِبَالِـــي
طَـــرِيقٌ طَـــوِيـــلٌ وَزَادٌ قَـــلِيـــلٌ ... وَحِمْـــلٌ ثَقِيـــلٌ وَكَـــيْفَ احْتِـــيَالِي
أَرَى عظَمَ ذَنْـــبِي فَيَشْتَدّ كُـــــرْبِي ... وَلَكِـــنّ رَبّـــي كَثِيـــرُ النَّـــوَال
فَيَا ذَا الْجَـــلاَل وَيَـــا ذا الْجَمَـــال ... وَيَـــا ذا الْكَـــمَالِ عَلَيْكَ اتكَـــالِي
فَكُـــنْ عِنْـــدَ ظَـــنّي وَلاَ تَيـــْسنِي ... وَلاَ تخْـــذِلَـــنّي بِسُـــوءِ فِعَالِـــي
فَأَنْتَ الـــرَّجَـــاءُ وَمِنْكَ اللّـــجَاء ... وَمِنْكَ الْعَـــطَاءُ فَـــهَبْ لِـــي سُؤَالِي

إن القصيدة وقفة عظيمة، وإظهار التأسف والندم على ما فات من الطاعات، وإضاعة الوقت ووسوسة الشيطان وهوى نفسه، ودوران ما اختلجه القلب من التفكير بالأمور الدنيوية وعدم راحة النفس في طلب المعيشة الفضولية الرفاهية، لتطيب به القلوب فتناسى بها عبادة الرحمن، وتغافل عنها، وكذلك مجالسة من لا يعبئ من أين أتاه رزقه، ومسامرة من ليس في مسامرته خير ولا منفعة، ومؤانسة من يزداد لك من الله بعداً وسخطاً، فديدنه القيل والقال، مع قرينه السوء مثله في الطبيعة الشنيعة السيئة، وقد حث الله سبحانه وتعالى بمجالسة الصالحين الذاكرين، حيث قال تعالى: "**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**"[23].

فالموت لا شك من حلولها على بني آدم، وقد كتبها الله عليهم من دون تفضيل ولا تمييز، فالغني والفقير على حد سواء، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والإنس والجن والبهائم، كلهم معرضون عليها لا محالة، فيتحتم طلب الزاد والتهيئ لها للإنسان الفطن اللبيب.

لقد توقف الشاعر باكيا يشفق على نفسه من تطاول الطريق، وتقليل الزاد، وتثقيل المتاع التي يحمل عليه يوم لا ينفع ما للمرء من مال وبنين وأزواج وغير ذلك، فيزداد كربا وحزنا، ويشتد همّاً وغما، وعندما ينظر نظرة عابرة ومتفقهة تجاه نصوص جالية إلى رحمة الله ولطفه وغفرانه،–لأنها وسعت غضبه وسخطه سبحانه وتعالى–يهدئ ويترقب ويطمع ظنا منه أن الله غفور رحيم، حليم رءوف لطيف، لا يخيب من ناداه، ولا يخذل من اتكل عليه، لأنه المرجو، ومنه اللجوء، وإليه العطاء، فهي كلمات دالة على التوبة واللجوء إلى هدى الله ورسوله، والخضوع مع الخشوع أمام من يستحق بالعبودية وحده، فيتذكر في مثل هذا الموقف أمثال: "**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**"[24]، وقال تعالى: "**إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**"[25].

فالشيخ بن فودي زاهد بمعنى الكلمة حيث يراقب مولاه في كل أحيانه، فالقطعة من القصيدة تعداد لأعماله الشنيعة القبيحة والتي لا تزداد له إلا بعدا عن حضرة المولى عز وجل، فعد عيوبا للنفس الأمارة بالسوء، وأخلاقا شنيعة، وطبائع سيئة غير لائقة للمؤمن الحقيقي في أحواله كلها.

فضياع الوقت ولو ثوان في غير مرضاة الرحمن خسران وضلالة. والعيانة التامة على الأمور الدنيوية بكل قوى الإنسان المؤمن، وألللامبالات في الأمور الأخروية عيب وعار. الحزن والتأسي بما كثر على المرء من الذنوب والمعاصي مع التفكر والتدبر برحمة الله وسعته في آن واحد.

فتلك هي مقصد النص ومغزاه، ملبية بمعنى الزهادة والتقرب بالأخلاق الفاضلة والحسنة، والبعد عما يبعد المرء عن الآخرة.

يقول الشيخ أيضا في بعض القصائد الواردة في الكتاب:

وقْــفٌ بِبَابِكَ فَــاقْبِلْ عَبْـدُكَ الْجَانِي ... يَــا مَــنْ بِلُطْفٍ وَفَضْلٍ مِنْهُ أَحْيَــانِي
يَــا مَـنْ هو الغَايَة الْقُـصْوَى لِقَاصِدِهِ ... عَــنْ بَـابِ جُـودِكَ قُبْحِ الذَّنْـبِ أَقْصَانِي
رَحْمَــاكَ رَحْمَاكَ يَا مَنْ قَدْ عَلاَ وَدَنَا ... يَـا مَــنْ بِبُعْدِ مَكِــانِي لَيْسَ يَنْسَــانِي
يَـا خَالِقَ الْخَلْقِ يَــا مَنْ لاَ شَرِيكَ لَـهُ ... يَـا مَــنْ تَعَاظَـمَ فِي مُلْكٍ وَسُلْــطَـانِ
كَيْفَ الْغِنَا عَنْكَ يَـا سُؤْلِي وَيَــا أَمَلِـي ... يَــا مَنْ بِــهِ عَــنْ جَمِيعِ الْخَلْــقِ أَغْــلانِي
مَــوْلاَيَ حُسْنَ رَجَائِي فِيكَ يطمـعني ... وَإِنْ تَمَــادَيْتُ فِي ذَنْــبِي وَعِصْيَــانِي
عَــرِّفْتَــنِي بِالّذي مَــا كُنْتُ أَعْرِفُــهُ ... عَــوارِفٌ مَنْكَ كَــانَتْ أَصْــلُ عِرْفَانِي
إِنْ لَــمْ يَكُــنْ مِنْكَ تَـوْفِيقٌ يُسَاعِـدُنِي ... مَــا كُنْتُ أَعْــرِفُ إِسْلاَمِــي وَإِيمَــانِي
مِـنْكَ التَّقَبّلُ وَالّتَقْصِيرُ مِنْ قِبَــلِي ... فَــاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْ جُــرْمِي وَعِصْـيَانِي
قَطَعْتُ عُمْرِي فِي سَهْوٍ وَفِي نَصَـب ... وَضَــاعَ مَــا بَيْنَ تَفْــرِيطِــي وَنِسْيَانِي
كَـمْ مَــا أَضيّع من فــرضٍ ونافـلةٍ ... وَكَــمْ أَطعْتُ هَــوَى نِفْسِــي وَشَيْــطَانِي
لَمْ أَدّخِرْ مِــنْ حَيَــاتِي مَا أَسرَّ بِهِ ... مُــذْ غَــرني أَمَلِــي فِيهَا وَأَغْــوَانِي
يَا مَالِئَ الصُّحْفِ فِي الآثَامِ مِثْلِي تُبْ ... وَاضْــرَعْ إِلَى اللهِ فِــي عَفْــوٍ وَغُفْــرَانِ
وَلاَ تَغُــرَّنَّــكَ الّــدُنْيَا بِــرَهْــرَتِهَا ... فَــيَا نَــدَامَــةَ مَــنْ يَغْتَرّ بِــالْفَــانِ

ابتدأ الشاعر بالمصدر الذي يدل على الاستمرار والتجدد في بداية مطلع القصيدة حيث يعتني بهذه الوقفة في كل أوقاته وتحركاته إلى يوم مماته، إنها وقفة مستمرة مع الله سبحانه وتعالى، وقفة يترقب مولاه جل جلاله، وقفة يقتضي المقام والتهيء من أجله، فإنه يشتكي الشاعر من كثرة ذنوبه وخطاياه وزلاته، وكذلك التقصير والتقتير في العمل الصالح، وتضيع الفرائض والنوافل، ومتابعة الهوى والشيطان.

نداءات خاشعة وذليلة خاضعة، أمام الخالق الذي يستحق تلكم النداءات، ألفاظ تستحق بربوبيته تعالى، منزه عن الشريك، الصمد الفرد، الذي تعاظم في الملك والسلطة ليس كمثله شيء، فاضطر الشاعر إلى تكرار بعض الكلمات لجلالة الموقف وتعظيم من ينادى، وكثر فيها ياءات الدالة إلى الاستغاثة وطلب العون، تجاه من يستحقها. فحث الشاعر كذلك ويحذر في آن واحد على التوبة قبل حلول الأجل، لأن صحائف الأعمال مليئة بالآثام، ولا ينقذ العبد من النار إلا التضرع وعفو الله وغفرانه، فلا يميل إلى غرور الدنيا فإنها طرق واسع يفضي بالناس إلى الهلاك فالكل مساق إلى الموت وهم غافلون في حياتهم العريضة حتى إذا دنا منهم الموت انتبهوا من غفلتهم على العيش الخداع، فالدنيا تغرنا بآمالها ومظاهرها الخداعة كالسراب، فيتم بنا الندامة في آخر المطاف.

فالقصيدة تخليط بين الزهد والتصوف، دعاء وخوف ورجاء، طلب واستغاثة، كلمات لا تستحق لأحد من العباد إلا الخالق الفرد الصمد.

فالقطعة الأولى للقصيدة توحيد مخلص، سلك بها عبر قنوات أدبية لطيفة، تحمل في طيات هذا القطع التنزه والعزة والجلالة، وإسناد ما حقه الإسناد من الربوبية والألوهية إليه سبحانه وتعالى، فالخير كله منه وإليه وله، والشر بما فيه التقصير والتقليل والتسوف مع التواني من المخلوقين العاجزين، ولولا موافقة الله وقدرته تساعد العبد الحقير إلى مولاه لما يعرف إسلامه وإيمانه اللذان أعمدا حياته كلها. يتمثل هذا التقديم الرائع في القصيدة قائلا:

إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكَ تَوْفِيقٌ يُسَاعِدُنِي * مَا كُنْتُ أَعْرِفُ إِسْلاَمِي وَإِيمَانِي
مِنْكَ التَّقَبُّلُ وَالتَّقْصِيرُ مِنْ قِبَلِي * فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْ جُرْمِي وَعِصْيَانِي

فالقطعة الثانية والأخيرة تعداد لزلاته وخطيئاته من لهو ولعب وإضاعة وقت وغفلة وتفريط ونسيان نحو عبادة الله سبحانه وتعالى، فعد ذروة العيوب من تضيع فرض ونفل، وهوى النفس واتباع الشيطان. وقد يتمثل بقول أمير المؤمنين محمد بلّو نجل الشيخ عثمان بن فودي في إحدى أبياته قائلا:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي * بِالنِّيلِ عَنْ قَوس لَهَا تَوتِير
إِبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْوَرَى * يَا رَبِّ أَنْتَ عَلَى الْخِلاَصِ قَدِير

فالنفس الأمارة بالسوء، وهي اللوامة أيضا قد جعلتني في حياته غرورا وطموحا نحو الدنيا وزخرفها، ومنعتني من أن أدخر ما تسر به يوم التغابن.

فاختتم الشاعر القصيدة بمتطلبات الزهد يناشد من تعاطي نفس الدرب بالتوبة النصوح، والتضرع إلى الغفور الرحيم، وأن يكفكف عن غرور الدنيا وزخارفها، فينخرط مع النادمين الآسفين بالفان والقذرة المكنى بأم نتن.

وفي القصيدة الأولى والثانية أساليب بلاغية حيث استخدم الشاعر جناس تام وغير تام في كلتي القصيدتين ليستغل الشاعر في التجنيس القوة التعبيرية للألفاظ لتوليد معنى جديد هيأته اللغة العربية في اشتقاقاتها، فيرمي إلى تقوية جرس الألفاظ وإعطائها نغمة محببة إلى ذهن السامع. ويتمثل في قوله:

تَمُرُّ اللَّيَالِي وَنَفْسِي وَمَالِي * فَيَا قَوْم مَالِي عَنِ الْمَوْتِ مَالِي

يستخلص الباحثان من ذلك كلمة (مالي) وهو جناس تام وقد ذكرت ثلاث مرات في البيت وحده، فالأولى تدل على ماله التي قام بتصريفها وصرفها في غير طريق لا تليق به ولا تكون له سببا لدخوله في الجنة، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أنه "**مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**"[26] لأنه ما قدمه لله هو له، وما أخره يتلفه الورثة وما ينفعه يوم احتياجه به. وأما الثانية والثالثة في البيت (فيا قوم مالي عن الموت مالي) فإنها مشيرة إلى شخصيته عتابا منه وذما له فمزج بين حرف (ما) الدالة على النكرة غير مقصودة بالشخصية الشاعر المذموم المضطرب بالذنوب والملاهي، غافلا عن الآخرة.

فالجناس الثاني غير تام فيتمثل في قول الشاعر:

نَهـارِي جِـــدَالٌ وَلَيْلِي انْجـــدَال وَحَـــوْلِي رِجَـــالٌ عَلَى مِثْلِي حَالِي

فكلمتي جدال و انجدال جناس غير تام حيث أن الأولى هي تدل على تجواله وطوافه وشغله في النهار لقمع الفقر عنه، ولجمع حطام متاع الدنيا، مشغولا عن آخرته، لا الجمع مُوَفَّق في حينه ولا الصدقة يدفع، ولا الجيران يعتني، ولا يعطي حق الأهل والأسرة جمعاء. وكلمة (انجدال) تُفَسَّر بحاله إذا جنّ الليل يشتغل في تفكر وخواطر نفس، ومن له ومن عليه ديونه وأمواله، خوفا منه إتلافها وفقدها نهائيا منه، موسوسا في لجج الإحصائيات إلى طلوع الفجر، هكذا هو حاله دائما، لذلك وقف ليبكي على ما فاته من هذه الخصلة الشنيعة، يطلب غفران الله وعفوه ورحمته.

وفي القصيدتين ألفاظ ومعاني موحية إلى عظمة الله سبحانه وتعالى، والخوف منه ومن عذابه، ومنها ذو الجلال، ذو الجمال، ذو الكمال، خالق الخلق، تعاظم في ملك وسلطان، يا سؤلي، يا أملي، كلها ألفاظ محتشدة بكل ما تحمل معاني الإلهية والربوبية والتي لا يقصد بها أحد إلا الله سبحانه وتعالى.

ومنها معاني ذات دلالة على ذم الدنيا وحب الشهوات التي هي مفتاح للمعاصي، مثل الغرور، الفانية، اللهو واللعب، والتفريط، هوى النفس وغير ذلك من المعاني التي تفسر مفهوم ميل الإنسان المسلم إلى الدنيا. وقد أحسن الشاعر اختيار ألفاظ وكلمات مناسبة في حق الله تعالى عند الدعاء والطلب.

وفي الكتاب كذلك نصوص نثرية ذات طابع أدبي، بأسلوب سلس ساذج، وبعبارة مخيفة مع إجلال الموقف الذي يواعظ فيه أو يرشد، ولكن الباحثين ارتكزا على الشعر دون النثر في الكتاب.

الخاتمة:

هذه الجولة السريعة عبارة عن إلقاء ضوء لشعر الزهد الذي نشأ منذ عصر ما قبل الإسلام ولكنه لم يتطور كفن مستقل بنفسه في الفنون الشعرية إلا في العصر العباسي على يد قائد ورائد أبي العتاهية، وذلك نتيجة ما اكتسبته نفسه الأمارة بالسوء، فتتابع الفكرة إلى شعراء الأندلس الذين تطوروه وازدهروا به ازدهارا ملموسا.

هكذا، فأدباء نيجيريا ساهموا إسهامات جبارة في ترويج هذا الغرض، حيث قرضوا أشعارا زاهية ومتوفرة في صفحات دواوين أشعارهم لالتزامهم بقيم إسلامية ومبادئ أخلاقية، ولتعليم الدين الإسلامي لهم بأن الموت لا بد آت، وأن الآخرة لا شك منها، وأن الله يبعث من في القبور، وكذلك ذم الدنيا وما فيها من المزخرفات والشهوات، وطلب العفو والمغفرة لدى الغفور الرحيم، وغير ذلك مما صدر في قصائدهم الزهدية الراشدة إلى الهدي المنير والدالة إلى نيل جنة الخلد يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

فالباحثان أخذا كتاب "**مطية الزاد إلى المعاد**" للشيخ عبد الله بن فودي رحمه الله ودرساه دراسة تحليلية مع استخراج بعض ما ورد منه من شعر الزهد، حيث قدما منذ البداية التعريف عن الزهد نشأة

وتطورا وازدهارا، ثم قاما بدراسة الكتاب منهجا وأسلوبا وما احتواه من الموضوعات، ثم ترجمة الشيخ عبد الله بن فودي صاحب الكتاب، ثم اختارا قصيدتين خلال الكتاب ودرساهما دراسة أدبية تحليلية كظاهرة شعر الزهد في الكتاب.

المراجع والهوامش:

1- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، بدون ت/ط، 265/1، مادة زهد.
2- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفرابي، الصحاح في اللغة، بدون ت/ط، 1/ 293، مادة زهد.
3- ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط/1 بدون سنة، 3/ 196، مادة زهد.
4- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي د. إبراهيم السامرائي وزارة الثقافة والإعلام دار الرشيد 1982م : 4/ 12.
5- الصاحب بن عباد (ت385هـ)، المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن إل ياسين،ط1، عالم الكتب 1994م : 3/ 421.
6- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، الإعجاز والإيجاز، دار الغصون – بيروت/لبنان، 1985م ط/3 130/1.
7- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار صعب – بيروت، ط/1 1968م 302/1.
8- أخرجه أبو شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (159 . 235 هـ) مُصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، طبعة الدار السلفية الهندية القديمة، بدون سنة، 13/ 222. باب ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم، برقم الحديث: 35459
9- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، بدون ت/ط 314/1. منقول من المكتبة الشاملة.
10- بهجت الحديثي، الروح الإيماني في الشعر العربي دراسة موضوعية فنية، ط/1 دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1997م، 12-13.
11- الصارمي، عبد القهار عبد الوهاب، القيم الأخلاقية في شعر الزهد عند داود تجاني أديكيليكن، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، السنة الأولى 2001م، العدد الثاني، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية – الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 115.
12- سورة ن، الآية:4.
13- ديوان حسان بن ثابت رضي الله عنه
14- محمد، سراج الدين، الزهد في الشعر العربي، بيروت – دار الراتب، الجامعية، دون تط، ص: 5.
15- غلادنثي، شيخو أحمد سعيد (البروفيسور)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط/2 1993م المكتبة الإفريقية، ص: 126.
16- المرجع السابق، ص: 128.
17- أغاك عبد الباقي شعيب (البروفيسور)، أساليب بلاغية في ديوان الشيخ عبد الله بن فودي. ط/2 سنة 2005م مركز المضيف لخدمات الكمبيوتر والطباعة والنشر إلورن، ولاية كورا، نيجيريا. ص: 17.
18- المرجع السابق.
19- الوزير جنيد بن محمد البخاري، ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة في المؤلفات، مخطوط في الكتبة البروفيسور سمبو ولي جنيد الخاصة، ص: 32. بدون تط.
20- مقري، إبراهيم أحمد (الدكتور)، الصورة التشبيهية في تزيين الورقات للشيخ عبد الله بن فودي، مقالة دكتوراه في اللغة العربية المقدمة بجامعة بايرو كنو، نيجيريا بدون تط، ص: 2.
21- غلادنثي، أحمد سعيد (الدكتور)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف، القاهرة، 1982م.
22- مقري، إبراهيم أحمد (الدكتور)، المرجع السابق، ص: 2.
23- سورة الكهف، الآية: 28.
24- سورة الزمر، الآية: 53
25- سورة يوسف، الآية: 87.
26- سورة البقرة، الآية: 215.